المحاضرة الخامسة: مقاومة الحاج أحمد باي قسنطينة (1830- 1850م) :

الحاج أحمد باي هو حفيد الباي أحمد القلي، وابن الشريف محمد الذي شغل منصب الخليفة في الفترة التركية، وهو من أصل كرغلي. بدأ الحاج أحمد يبرز كرجل لامع وكفء منذ سنة 1809م عندما وصل إلى رتبة "قائد العواسي"، وتعيينه عام 1818م خليفة للباي، حيث أثبت جدارته في وظيفته الجديدة، الأمر الذي دفع الداي حسين توليته على بايلك قسنطينة عام 1826م، إذ بعد تقلده القفطان والتحاقه بمنصبه الجديد كباي، باشر وبسرعة دون إقامة أية وليمة وظائفه بدار الباي التي كانت المقر الرسمي للحكام الأتراك ببايلك الشرق.

يذكر محمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر في مذكراته، أن السبب في تولية الكرغلي أحمد، بايا على قسنطينة "، رغم أن العرف السائد في تلك الفترة أن البايات يجب أن يعينوا من فئة الأتراك (أن هذه الفئة قد انتشر بينها الفساد وتوجهت إلى اكتناز الأموال، وإذا اقترب وقت الدنوش يأخذون أموال الناس ظلما بالمصادرة والنهب والغزو، وتوالت تسمية البايات وعزلهم والوطن لا يزداد إلا نقصا وضعفا، وهكذا اضطروا لتولية الكرغلي أحمد بايا على قسنطينة، فضلا أن هذا الباي كان يحظى بثقة الداي حسين).

1- موقف أحمد باي من الحملة الفرنسية على الجزائر :

شارك الحاج أحمد باي في المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي لمدينة للجزائر، إذ بلغ عدد جيوشه حوالي ثلاثة آلاف فارس، ولكن إثر سقوط مدينة الجزائر العاصمة عاد إلى عاصمة حكمه في قسنطينة، رفقة أنصاره من الأتراك الذين قدموا معه من الجزائر قصد إعداد جيش قوي يمكن أن يعتمد عليه، كما عمل بجدية على تحصين عاصمته قسنطينة، ثم أقام ثكنات جديدة مستوعبا بها جنودا من الجزائريين، كما شرع في التخلص من فئة الإنكشارية، ونصب نفسه "باشا" كخليفة للداي حسين.

أدركت فرنسا منذ الوهلة الأولى لنزولها بمدينة الجزائر خطورة مقاومة أحمد باي، وحاولت بكل السبل القضاء عليها، فكانت البداية برسالة الجينرال "بورمون" إلى الحاج أحمد باي والتي طالبه فيها بالعتراف بالسيادة الفرنسية وبتسليم نفسه مقابل ضمانات بحمايته وحماية حاشيته وكل ممتلكاته، تلتها محاولة من الحاكمين العامين الجينرال "كلوزال"، و"الدوق دي روفيقو" عام 1831، ولكن كلها باءت بالفشل فالاستسلام كان يعتبره أحمد باي خيانة لتعاليم الدين الاسلامي الحنيف الذي يحث على الجهاد ضد المحتل.

ونتيجة لعدم استجابة الباي، لجأ المستعمر إلى انتهاج سياسة التفرقة بين الجزائريين، كمحاولة لاختصار الطريق والاقتصاد في الدم الفرنسي وتكاليف الحرب، فحاولوا استغلال عداء بعض شيوخ القبائل للحاج أحمد وتكوين تحالف معهم ضد الباي ولكن هذه المحاولات لم تفلح .

في تلك الظروف كان الوضع متأزما بمدينة عنابة والصراع على أشده بين الحاج أحمد والاستعمار الفرنسي الذي سخر كل ما عنده لاحتلال تلك المدينة، كان الباي يعتبر عنابة جزءا لا يتجزأ من بايلكه، لذا لم يدخر أي جهد لمنع الفرنسيين من الدخول إليها، منها الحملة الفرنسية الفرنسية التي قادها الضابطين "هيدار" و"بيقوت " في سبتمبر 1831، والتي انتهت بمصرعهما وفرار جنود الحملة الفرنسية مخلفين وراءهم خسائر فادحة في العتاد والأرواح.

2- الحملة الفرنسية على مدينة قسطينة:

باشر الماريشال كلوزال في التحضير للحملة الأولى على مدينة قسنطينة في نوفمبر 1836م والتي انتهت بالفشل الذريع تاركة آثارها الوخيمة، ماديا ومعنويا في نفسية المستعمر، كما ترتب عليها تعويض الماريشال "كلوزال" بالماريشال "دامريمون "، إلا أن تلك الحملة قد فوجئت بمقاومة شديدة قادها الباي أحمد بحماس، تشد أزره الكثير من القبائل القسنطينية، وبعد الهزائم المتكررة حاول "دامريمون" العودة إلى التفاوض مع الحاج أحمد، مقترحا عليه البقاء في منصبه مقابل، الاعتراف بسيادة فرنسا وتقديم ضريبة سنوية، لكن الباي رفض تلك الاقتراحات.

ونتيجة لهذا الرد قرر الماريشال القيام بحملة أخرى على قسنطينة مستخلصا في الوقت نفسه دروسا من هزائمه الأولى، فعين النقيب "فولتز"، الذي كان -آنذاك- بتونس، للقيام بدور الجوسسة لمراقبة الرأي العام القسنطيني وأخذ معلومات عن القوة العسكرية للباي وكذا استعداداته وتحركاته. وهكذا استطاعت فرنسا أن تتفرغ كليا لتكسير هذا الدرع القوي، خاصة بعد اتفاقية التافنة (ماي 1837م) بين المستعمر والأمير عبد القادر والتي بمقتضاها، تم إيقاف القتال بين الطرفين.

كان الحاج أحمد على علم بكل التحركات الاستعمارية والاستعدادات لشن حملة أخرى على مدينة قسنطينة، فأعد العدة واستعد لذلك. وفي هذا الظرف وصلته رسالة من الماريشال "دامريمون" والدوق "دي نمور" يخبرانه بقدوم الحملة الفرنسية ويطلبان منه التفاوض. كما أرسل أيضا الماريشال إلى السكان بقسنطينة، برسالة تعهد زائف ووعود كاذبة، حيث سبقتها رسالة الاميرال دوبورمون إلى سكان الجزائر العاصمة، التي تعهدت فيها فرنسا باحترام مقدساتهم الدينية وثرواتهم، ولكن ابن عيسى – خليفة الباي - كان يدرك بأنه أسلوب استعماري تقليدي ولابد من المقاومة.

وصلت الحملة الفرنسية إلى سطح المنصورة في 05 أكتوبر 1837 م، وكان الحاج أحمد قد أسند مهمة الدفاع عن المدينة إلى ابن عيسى حيث واجهت قوات العدو مقاومة عنيفة، لقي فيها الماريشال دامريمون مصرعه في 12 اكتوبر وكذلك قائد الأركان بيريقو، وخلف دامريمون الكونت فالي في القيادة، كما تم تعزيز القوات الفرنسية التي استطاعت أن تدخل جيوشها قسنطينة في 13 أكتوبر، وتزرع الموت والدمار والفساد والنهب بين أوساط السكان،

أما الحاج أحمد باي الذي دافع عن عاصمته بكل ما أوتي من قوة، انسحب نحو الجنوب القسنطيني لتعبئة القبائل ومواصلة الجهاد ضد المحتل.

3- حث السكان على الجهاد :

في شهر مارس 1838م، حاول أحمد باي الاقتراب من مدينة قسنطينة حاثا القبائل على الجهاد، فسارع الجينرال "نيقريي" للخروج في حملة عسكرية لمقاتلة الباى، لكنه عندم يئس من ملاحقته وخشي العواقب الوخيمة التي قد تنجم عن تلك الحملة، بعث إليه برسالة جاء فيها ما يلي :

"... إنك تحاول (الحاج أحمد) إثارة الجماهير ... وعليه ينبغي أن أقاتلك أينما وجدتك... إن استسلامك الكلي، يمكن وحده، أن ينقذك من الهلاك... وليس لك إلا أن تثق في شرف فرنسا... بهذا الشرط أضمن لك الأمن ولعائلتك وأملاكك... ".

عمل الحاج أحمد على إيقاظ شعور القبائل لتعبئتها من اجل النهوض كتلة واحدة ضد المحتل، حيث انتهى في تحركاته إلى غاية الحدود التونسية بمقربة من مدينة الكاف، أملا في توحيد القبائل لشن هجوم شامل على العدو بمدينة قسنطينة .تمكن الباي من جلب قبيلة عامر الشراقة إليه وأولاد زواوي ، وأولاد عبد النور والزوارة وبني هارون وقبيلة الحراكتة، بالإضافة إلى خليفته السابق إبن عيسى وآغا مدينة القل أحمد بن الحملاوي.

كما كانت المناوشات التي يقوم بها الحاج أحمد باي من حين لآخر على الحدود التونسية، قد أزعجت كثيرا وزير الحربية الفرنسي حيث أبدى تخوفه من تطور الأحداث على الحدود التونسية من جراء وجود أحمد هناك، الأمر الذي دفعه في أكتوبر عام 1838م إلى مضاعفة العمل السياسي بتونس عن طريق القنصل الفرنسي هناك قصد إحباط كل تحركات الباي، محاولا حمل باي تونس على إبعاد الحاج أحمد عن الحدود بل أن حكومة الملك "لويس فيليب" شجعت باي تونس منح الحاج أحمد حق اللجوء، ولكن بشرط "أن يظل هادئا ودون تحرك أو تحريض للتجمعات العسكرية أو تشجيع إرسال السلاح والذخيرة أو القيام بمراسلات معادية لفرنسا"، محملا في الوقت نفسه الحكومة التونسية مسؤولية ذلك.

4- استسلام الحاج أحمد باي ونهاية المقاومة.

شعر الاستعمار الفرنسي بقوة هذا الرجل وصلابته في الدفاع عن دينه ووطنه، لذلك سخر كل ما عنده من عدة وعتاد لوضع نهاية لمقاومة هذا القطب، كان الباي أحمد متحصننا بجبال الأوراس، لذلك حاصرت القوات الفرنسية من مختلف الجهات بلاد الأوراس طيلة شهر ماي وبداية جوان عام 1848م، وكان النقيب "كونروبار" والنقيب "سانت - جارمان" يشرفان على تنفيذ العمليات العسكرية، في حين تعسكر النقيب "ديبوسكي" بالزاب

الشرقي ما بين وادي منصف وزربيات الوادي في تلك الفترة ، لم تكن حالة الباي الصحية والعسكرية تسمح له بمواصلة الكفاح بالإضافة إلى أن معظم القبائل هناك قد حوصرت حصارا شديدا فلم يعد بمقدورها مؤازرته أو حمايته، فاضطر بذلك إلى طلب الأمان.

وتم استسلامه يوم 5 جوان 1848م، كما وضع الحاج أحمد شروطا مقابل إنهاء الحرب مع الفرنسيين وهي: استرجاع أملاكه وثرواته ثم السماح له بالسفر إلى بلد إسلامي: بعد استسلامه، مكث الباي بمدينة بسكرة تحت مراقبة السلطة الفرنسية مدة يومين ثم انتقل في اليوم الثالث إلى مدينة قسنطينة : "ولما اقتراب من مدينة قسنطينة، خرج أكابر المقاطعة لاستقباله ، ولتهدئة النفوس الثائرة سارع المستعمر إلى نقل الباي من مدينة إلى الجزائر العاصمة، أين مكث هناك تحت الاقامة الجبرية إلى أن توفي عام 1850.

مصادرومراجع المحاضرة:

- عمار بوحوش، تاريخ الجزائر السياسي من البداية لغاية 1962، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.

- جون وولف، الجزائر وأوربا (1500-1830)، تر: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

- محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1515-1543)، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.

- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1980.

- نصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

- أبو القاسم سعد الله، أضواء تاريخية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

- فرناند بروديل، البحر المتوسط المجال والتاريخ، تر: عمر سالم، منشورات وزارة الثقافة تونس، 1990.

-أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492- 1792)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1965.

- محمد العربي الزبيري، مدخل إلى تاريخ الجزائر الحديث، ج01، الجزائر، 1985.

- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مكتبة الحياة، بيروت، 1980.

- أمين محرز، الجزائر في عهد الأغوات (1659-1671)، دار البصائر للنش ر والتوزيع، الجزائر، 2011.